

الإدراك التفاعلي والتواصل المترابط في الترجمة السمعية البصرية

حفناوي بعلي
جامعة باجي مختار
عنابة - الجزائر -

ملخص:

تعتبر الترجمة وسيلة في الاتصال الدولي. وكذا أداة فعالة في التواصل الجماهيري على مستوى أجهزة الإعلام السمعية والبصرية؛ من حيث قدرتها على التأثير المباشر على المشاهد والمستمع في توجيهه وتغيير مواقفه وسلوكه، وتوافق النوايا والبواعث، وعلاقة الرسالة المترجمة إلى المتلقي / المترجم إليه. يتمثل مصدر قوة وسائل الاتصال في مدى تفوقها وحضورها في الحصول على الاستجابة للخطاب المترجم، لأنها تستخدم الصوت والصورة معاً؛ في تصميم الرسالة / خطاب الترجمة من لغة إلى أخرى. والطرف المتلقي يدركها عبر استخدامه لحاستي السمع والبصر؛ فعن طريق الأذن يسمع الرسالة، وعن طريق العين تمثل أمامه حية، وكأنها حقيقة ماثلة. فالحواس الخمس تمكن المتلقي من إجراء أنواع عديدة من الاتصال المستمر، ويستقبل كميات هائلة من البيانات والمعلومات والمعارف المنقولة؛ من لغات أخرى بواسطة الترجمة، فيدركها ويتعامل معها.

كلمات مفتاحية: إدراك؛ تفاعل؛ تواصل؛ ترجمة سمعية-بصرية؛ لغة؛ نص.

التواصل / الاتصال في الترجمة عملية تأسيس المعنى، وهي تحظى باهتمام واسع النطاق بين العلماء بصفة عامة، لأنها ماثلة في كل المواقف. وقد اضطلع بدراساتها عادة علماء النفس، وعلماء السيميولوجيا / علم العلامات، ودارسو وسائل الاتصال الجماهيري، وعلماء اللغويات، ونظرية الترجمة. الأمر الذي جعل بحوث الاتصال ميدانا راسخا من ميادين البحث في الترجمة، وكثيرا ما ترتبط

بالدراسات المتعلقة بالثقافة / التواصل الثقافي. وغالبا ما تنطلق بحوث الاتصال في الترجمة من الشكل البسيط الذي يتساءل: من الذي يقول، وبأي وسيلة، ولمن، وما هو تأثير ذلك ؟ ويبدو هذا أحيانا كما لو كان التحليل يسير في خط مستقيم. وعلى أية حال فإن العناصر الأساسية في عملية الاتصال / التواصل في الترجمة تشمل عادة: المرسل / منتج الرسالة، والرسائل / الشفرة، والمتلقين / الجمهور المتلقي.

الأبعاد الأنطولوجية للإدراك التفاعلي في الترجمة

ازداد الاهتمام مؤخرا بدراسات الترجمة؛ بشكل غير مسبوق على مستوى العالم؛ لأسباب عدة منها: الاعتماد على الترجمة بشكل كبير كوسيلة للاتصال في عالم يتقارب ويتداخل؛ سياسيا واقتصاديا وإعلاميا. مما نتج عنه محاولة قولبة عوالم مختلفة في بوتقة جديدة، اختير لتسميتها بمصطلح " عولمة ": العولمة الإعلامية، والعولمة الثقافية. فالمواد الإشهارية والبرامج التلفزيونية والنشرات الإخبارية، على سبيل المثال تظهر متزامنة بلغات العالم المختلفة عبر الترجمة المباشرة لها. ورغم أنها تنتج وفق البنى المفاهيمية واللغوية للدول المنتجة ثم تصدر للشعوب الأخرى، إلا أن بعض الباحثين يرى أنها مختلفة الأشكال اللغوية ولكنها متطابقة المحتوى.

يعد علم النفس الإدراك / الاتصال أحد الروافد الأساسية، التي تعتمد عليه عملية التواصل في تحقيق الهدف. ويعرف علم النفس الاتصال بأنه عملية نقل انطباع أو تأثير من منطقة إلى أخرى، أي من فرد إلى آخر، أو من بيئة إلى الفرد. وذلك من خلال عدة أساليب جوهرها الكلام / اللغة، واستخدام الحواس التي تشعر الآخرين بالاهتمام. ويؤكد علم النفس على عدة أسس في هذا المفهوم منها: استشارة انتباه الطرف الآخر / المستقبل واستعمال رموز مفهومة. أن

تكون الرسالة مرتبطة بحاجات المستقبل، ومتوافقة مع القيم والمعايير الاجتماعية. أن تراعى الحالة النفسية للمستقبل، ومراعاة الدقة في اختيار الوقت المناسب، والمكان المناسب والوسيلة المناسبة. ولذلك يؤكد دفلور في تعريفه للاتصال من الوجهة النفسية؛ بأنه عملية عصبية حيوية حيث يتم فيها تسجيل معاني ورموز معينة في ذاكرة الأفراد، وأنه عملية نفسية حيث يتم اكتساب معاني الرموز من خلال الإدراك.¹

أي أن الاتصال في علم النفس يشمل التأثير الذاتي، ويتمثل في الشعور والتخيل والتفكير وغير ذلك من العمليات النفسية الداخلية. كما يشمل الاتصال بين فرد وآخر من خلال الحديث والتفاعل، وينعكس ذلك كله في تحقيق التوازن النفسي والتوافق مع المجتمع. وتبرز الخلفية الإبيستمولوجية لواجهة المعرفة في الإدراك ومجال الترجمة؛ على ضوء الذات في مقابل الموضوع الموجود أمامنا. فيتشكل تمايز فعلي بين مختلف المنبهات السمعية والبصرية، كما يوجد تمييز فاصل بين الوعي الحسي والوعي الحركي؛ في انعكاسه على الانطباعات والوعي بحركة الزمن داخل الوجود المكان. إن الإقرار بوجود موضوعين مختلفين، موضوع الإدراك / حطاب الترجمة، وموضوع التمثيل / النص المترجم، يتحول إلى واجهتين مختلفتين في الإدراك: واجهة أنطولوجية تعني أننا ندرك الأشياء في ذاتها مباشرة، وواجهة معرفية تعني أننا ندركها بشكل غير مباشر، يتوسط موضوع التمثيل والعلاقات المتصلة.

إن نظرية الإدراك تبرز علاقة الانصهار بين الذات المدركة وموضوعها؛ وفق تصور أنطولوجي للصفات المقولة / المترجمة عن الأشياء وللذات المدركة للأشياء. إننا ندرك من خلال الضوء كما نفكر من خلال الآخر في التواصل اللغوي / الترجمي، فكما أن التواصل يفترض وجود جهاز لغوي معين، يسكن المعنى المترجم من خلاله في

صلب الكلمات. كذلك يفترض الإدراك وجود جهاز قادر بداخلنا على الاستجابة لنداءات الضوء بحسب معناها. في العمل المترجم يتحقق فعل الاندماج، وهي صفة تخضع لها شبكة المنبهات التي تؤثر على الحس والوعي والإدراك.²

لقد كان التصور السيكولوجي السلوكي، يعتقد أن المنبهات تؤثر بشكل معزول وفي انفصال عن بعضها البعض على أدوات الإدراك. بينما تمثل صيرورة تأثير المنبهات شبكة تركيبية منصهرة فيما بينها. تدمج المنبهات الصوتية فيما بينها لتؤثر بشكل متجانس على الذات المدركة، كما تضع خارج الشبكة كل المنبهات الأخرى، التي لا تملك قيمة دالة بالنسبة للذات المدركة. في التفاعل المندمج القائم بين عناصر الحقل الدال، يظل ذا قيمة تواصلية ويصبح مادة التجربة بالنسبة للوعي، يتحول كذلك إلى صيغة تواصل مع العالم ومع الآخرين. فالإدراك في حد ذاته هو قبل كل شيء بنية دلالية، والرؤية المندمجة ذات مكون دلالي ينبثق نوعيا من إِبصار كل عين على حدة دون أن يكون مجرد تركيب بسيط بينهما. بالتالي، يوجد تفاعل بين الموضوع بحكم الإضافة الدلالية، التي تقدمها البنية المندمجة للإدراك.

هناك عوامل كثيرة تمثل معوقات وعقبات تحول دون إمكانية تحقيق الإدراك الفعال / الاتصال، ومنها: عدم القدرة على التعبير / الترجمة بوضوح عن معنى مضمون الرسالة، نتيجة لافتقار الخلفية السليمة، التي تمكن من نقل المعنى بصورة واضحة وسهلة. وهناك عائق الحالة النفسية لمستقبل الرسالة / المترجمة، ومدى استعداده لتقبلها. وهذا يتوقف على رد الفعل الإيجابي، الذي يستفاد منه في التغلب على عوائق الاتصال الفعال. قد تتضمن الرسالة / المترجمة التي تم استيعابها بعض الأخطاء، وبعض المواد التي تقلل من وضوح الموضوع، وينتج عن ذلك أن تصبح الرسالة المستقبلية على درجة من

عدم التيقن. وكذا عدم فاعلية وسيلة الاتصال المستخدمة في نقل الرسالة المترجمة، بمعنى أنها لا تتفق والظروف المحيطة، ولا تراعي دواعي عوامل وظروف الموقف. يميل بعض الأفراد إلى رفض بعض الأفكار الجديدة المترجمة، وخاصة إذا تعارضت مع معتقداتهم السابقة.³

لقد شبه "جون درايدن" الترجمة "بالرقص على حبال بأرجل موثقة"، وذلك كناية على صعوبة وتأرجح المترجم بين ضرورة إحدى اللغتين. أما أيان ريتشارد، فقد وصف الترجمة بأنها أكثر أنواع الممارسات التي أقدم عليها الإنسان تعقيدا منذ بدء الخليفة. وقد فهم كلامه هذا حينذاك على أنه نوع من المبالغة الدالة بعد تطور الدراسات النفسية واللسانية حول المعنى، وحول إمكانية الترادف اللفظي أم من عدمها، وحول قابليات اللغات للترجمة أصلا. وهو ما يسمى أحيانا بـ "امتناع الترجمة"؛ فهناك فلاسفة للغة يرون استحالة الترجمة مثل: فلارد كواين، وهابيدجر، ولودفيغ فيتجنشتاين في آخر أيامه. على أن ريتشارد قد وضع أصبعه على المعضلة الأساس للترجمة، وهي قضية المعنى اللغوي وألف مع "تشارلز أوغدين" كتابا من أهم الكتب في هذا المجال، يحمل عنوان "معنى المعنى".

وما زالت قضية تحديد المعنى تؤرق الباحثين في مجال الترجمة. وقد اتفق كثير من الباحثين على أن الترجمة تنطوي بشكل تلقائي على فقدان تلقائي للمحتوى المنقول. الإشكالية الأخرى هي ارتباط التفكير باللغة، فيستحيل كما يرى فيتجنشتاين، أن نصف قضية تنطبق عليها عبارة ما في اللغة دون تكرار ذاتها. أما فيلسوف الظاهرية (إدموند هوسرل)، فيرى أننا نستطيع بطريق الإدراك المباشر معرفة الشيء وتصوره، لأنه يمكن تصور ذلك الشيء بشكل صوري (فوتو غرافي)، ولكن لا يمكن الاحتفاظ بصورته طويلا، واسترجاعه في العقل، وإعادة تصوره حتى يمكننا الكلام عنه. أي حتى يأخذ شكلا

لغويا، وهو ما دلل به هوسرل على أسبقية الإدراك على اللغة. ولكن في كل الأحوال، ولمحدودية ذاكرتنا الفوتوغرافية، وصعوبة الاحتفاظ بجميع الصور لكل المواقف والحقائق، فحن نجد أنفسنا أمام الصور اللغوية فقط. وعليه يمكن القول أن للغات خصوصية إدراكية تحتزنها لغاتها.⁴

ويرى عديد في مجال علم النفس المعرفي ارتباطا وثيقا بين التفكير واللغة؛ من حيث أن اللغة فقط هي التي تمثل أمام العقل وتدخل في عملياته، وهي أيضا تحتوي المخزون الأساسي للثقافة المتراكمة والمتوارثة عبر الأجيال. فاللغة هي أداة التفكير التي يستحيل حصوله من دونها، وهذا ما دفع بعض الباحثين للربط بشكل جدلي بين القدرة اللغوية للفرد وقدرته على التفكير. الإشكالية الأخرى للترجمة هي ارتباطها بالثقافة. وقد أبرزت هذه الإشكاليات دراسة "الأناسة" الاجتماعية، والأناسة اللسانية. وبرزت هذه المعضلة من طرفين في هذا المجال: أولهما علم الأناسة الوظيفي على يد باحثين مثل ماوس، ومالونسكي، وفيرث.

حيث احتج هؤلاء على الدراسات التقليدية في مجال الأناسة في أوروبا (إدوارد تيايلور، وجيمس فريزر)، التي تعتمد على ترجمة عبارات الثقافات المدروسة؛ عبر مترجمين ووسطاء إلى لغات الباحثين الأوروبيين، الذين لم يحتكوا بهذه الثقافات ولا يعرفون لغاتها. ثم اعتماد الترجمات بشكل تلقائي في دراساتهم، وفي إطلاق الأحكام على هذه الثقافات انطلاقا من ثقافة الدارسين؛ دونما اعتبار للسياقات الثقافية والوظيفية للغات الشعوب المدروسة، أو لوظائف اللغة الاجتماعية، فلكل شعب حسب رأيهم وظائف اجتماعية، ونظم خاصة لا يمكن سحب المعايير الأوروبية عليها.⁵

أما الطرف الثاني ويمثل في تطور الدراسات الثقافية البنيوية، التي أكدت اعتباطية علاقة اللغات بالواقع، وعلى اعتباطية علاقة الدال بالمدلول في العلامة الرمزية اللغوية؛ فنظر هؤلاء للغة على أنها كيان وسيط بين العالم الخارجي والإدراك الداخلي لهذا العالم في الثقافة، أي أن الثقافة ليست إلا نموذجا لما يبدو لأبنائها أنه حقيقة في العالم الخارجي؛ نموذجا يتضمن بعض التصورات والافتراضات الجمعية، التي يشربها أفراد الثقافة ويتوارثونها. ويمكن بشكل مجازي النظر إلى اللغة على أنها في مجملها "دال" والثقافة برمتها على أنها "مدلول".

ولذلك أكد بعض الباحثين مثل إدوارد سابير، وبنجامين وورف، في فرضيتهم التي عرفت باسمها أحيانا، وبالحنمية اللغوية أحيانا أخرى، على استحالة الترجمة من لغة إلى أخرى، لأن اللغة هي التي تحكم نظرتنا للعالم، ونحن لا نستطيع رؤية العالم إلا من خلالها. ولكل لغة رؤية خاصة للعالم تحكم المتكلمين بها. وحسب فرضية سابير وورف فنحن محكومون، أو بالأحرى منغلَقون داخل إطارنا اللغوي، والثقافات المختلفة ليست صورا مختلفة من عالم واحد، بل هي في ذاتها عوالم مختلفة، أي أننا نعيش في عوالم مختلفة متباعدة تباعد لغاتنا.

إن ما سبق يطرح أكثر من تساؤل لدارسي الترجمة، فهل نتوقف الترجمة على اللغة فقط، أم تتجاوزها للثقافة ككل؟ هل يمكن النظر للنصوص المترجمة على أنها نصوص ذات كيان مستقل، يحمل المضمون ذاته في الثقافات المختلفة، أم هي جزء من واقع مشترك لجميع اللغات، أم هي تتبع لثقافات خاصة يصعب فصلها عنها، وقد يتغير مضمونها حسب السياقات الثقافية المختلفة؟ إن معظم وجهات النظر حول الترجمة التي تنطلق الثقافية، والأدبية، والأدبية المقارنة تؤكد على الخصوصية الثقافية للنصوص، وعلى علاقة النصوص المترجمة بالثقافة بمجملها، بينما تميل بعض الدراسات اللسانية إلى حصرها قدر

الإمكان في النظم اللغوية. ولذلك ينظر للدراسات اللسانية في مجال الترجمة على أنها دراسات اختزالية في مجملها، تختزل النصوص إلى مجرد كيانات لغوية متباعدة، وتركز على التركيب اللغوي أكثر من السياق.⁶

وبشكل عام يعزى عدم ظهور نظرية متكاملة للترجمة لعدم وجود نظرية متكاملة للغة، أو المعنى اللغوي. ولذلك تعددت وجهات النظر في الترجمة بتعدد النظريات والآراء اللغوية، وبتعدد وجهات النظر الفلسفية والثقافية، وأخيرا وليس آخرا بتعدد المجالات التي تأخذ الترجمة ضمن اهتماماتها. وقد عدد العالم اللغوي رومان جاكبسون، وجماعة نظرية التخاطب، منذ زمن ليس بالقريب ثلاثة أنماط للترجمة: الترجمة السيميائية بين النظم السيميائية المختلفة؛ كأن تترجم من نظام رمزي لآخر، أو من رواية لمشهد سينمائي، أو من لغة رياضية لوصف لغوي لفظي، ثم الترجمة البين - لغوية، وهي ترجمة بين اللغات اللفظية. ثم الترجمة الضمن - لغوية، أي الترجمة داخل اللغة ذاتها؛ مثل إعادة كتابة نص قديم أو استلهام قصيدة في مقالة. ولم يكن جاكبسون ينظر للترجمة على أنها نقل مضمون لغوي، بل على أنها إعادة تفسير رسالة بين مرسل ومتلق؛ عبر صياغتها في نظام شفري جديد.

ثم هناك دراسات الترجمة ذاتها، والتي يعتبرها معظم الباحثين متداخلة المجالات. ثم هناك دراسات الترجمة الإبستمولوجية، التي تبحث في طبيعة ومفاهيم الترجمة، ودراسات الترجمة النفسية والذهنية، التي تحاول سبر ما يدور في عقل المترجم عند الترجمة، وما يسمى بالبروتوكولات العقلية التي يلجأ إليها المترجمون. كما توجد أيضا دراسات الترجمة البيداغوجية / تعليم الترجمة، ودراسات الترجمة اللسانية، وغير ذلك. ويوجد أحيانا اختلافات جذرية وجوهرية

في كثير من مجالات دراسات الترجمة، فبينما تركز دراسات الترجمة اللسانية على ما يسمى بالتكافؤ في الترجمة على مستوى الألفاظ والجمل، وعلى الدراسات المقارنة والتقابلية.

تركز بعض الدراسات الأخرى على بعض وظائف النصوص ذاتها، وعلاقة تلك الوظائف بأنماط النصوص: نصوص وصفية، وأخرى تخاطبية، وغيرها تأثيرية، أو جدلية. وهي تركز على أداء النص للوظيفة ذاتها على حساب شكله اللغوي. أما الدراسات التفسيرية والأدبية فهي تركز على التغييرات الاختيارية والإجبارية، التي تطرأ على النصوص عند ترجمتها، وعلى الخيارات المتعددة، التي يمكن أن يفتح عليها النص الأصلي، والبعد الذي ركز عليه النص المترجم. وهناك من يقسم دراسات الترجمة إلى حقلين من مثل جيرري هولم: الأول دراسات بحتة، وتنقسم بدورها إلى "نظرية"، والدراسات الوصفية والتي تصف النصوص وعلاقتها ببعضها. والأخرى دراسات الترجمة التطبيقية، ومنها تدريب المترجمين؛ الوسائل المساندة في "الترجمة"، "النقد الترجمي".

وأخيرا فقد ظهرت مناقشات حديثة حول الآلات الإلكترونية المستعملة في الترجمة. وقد أثبت أن كل الأذهان الحالمة والصحافية كثيرا من الأشياء التي لا تسمح بها الأحداث المعروفة. أولا هل هذه الآلات موجودة ؟ نعم ولا. ويظهر أن إمكانية استعمالات هذه الآلات الحاسبة للترجمة، وانبثقت من مؤتمرات دورية بين العلماء الأمريكيين والبريطانيين. وقد أدى تبادل جديد في الآراء إلى الاهتمام أكثر بهذه التجربة بواسطة الحاسوب الإلكتروني. ومن جهة أخرى فإن الاتحاد السوفيتي قد وصل كذلك إلى التجربة، وهي المساهمة الهامة في مؤتمر المترجمين بالآلات الإلكترونية. وأخيرا فقد أعلنت المدرسة العملية الإيطالية أنها كانت بصدد إعداد عقلها الإلكتروني (آدم 2) للترجمة

المماثلة. ولهذا فإن كاري يمكنه إذن التأكيد أن الآلة المترجمة أصبحت حقيقة ماثلة.⁷

هذه هي الأفاق انطلاقا من المعطيات الحالية، إن النتيجة النوعية للباحثين من المحتمل شن معركة. هي هذه: لا يمكن للآلة المترجمة أبدا ترجمة الأدب والشعر. فكلما كانت الترجمة فنا، فإنها تتطلب من المترجم التمارين الكثيرة لكفاءته الإبداعية. حيث تعتبر الآلات الميكانيكية من الوسائل المساعدة الضعيفة، فهذا النوع من الترجمة يجب أن يترك دائما للإنسان. ومن جهة أخرى يرى بعضهم أن هذه الترجمات خالية من أي زعم أدبي. لقد انتهينا إلى الكلام عن الآلات المترجمة، لأنه هذه الأخيرة لا يمكنها التفكير مثلنا. إن الذي نتكلمه ونكتبه للأمم المتحدة، واليونسكو، وفي وكالات الأنباء الدولية، يدل على وجود خطر ما إذا وجد، فهذه الظاهرة لغوية أساسية.

التواصل والنص المترابط في الترجمة السمعية البصرية

أدى تطور الدراسات اللسانية، والنفسية، والإعلامية، إلى الاهتمام بمعرفة طبيعة اللغة وطبيعة العمليات الذهنية التي تدخل في استعمالها. وكذلك تطور الدراسات المهمة بنظريات التواصل، والدراسات النقدية المقارنة. وهذا جدد البحث النظري في طبيعة الترجمة كونها عملية لغوية؛ ترتبط ذهنيا وثقافيا بأكثر من لغة، مما أثار فضول الكثير من الباحثين من تخصصات مختلفة. وقد أظهرت الدراسات اللغوية الحديثة، خصوصا في العقود الأخيرة مدى صعوبة وتعقيد اللغة الإنسانية، التي يكتسبها البشر بشكل فطري. حيث اعتبرت الدراسات اللسانية البنوية النموذج المحتذى للدراسات الإنسانية في المجالات الأخرى؛ كعلوم الاجتماع اللغوي والأدبي، والإناسة، والنقد الأدبي والنقد الثقافي المقارن. كما تعمقت الدراسات في هذا الجانب من

التفكير، أو علاقة اللغة بالثقافات المحلية. كل هذا أدى إلى تعشب الاهتمامات بالترجمة وتشعب مجالاتها ونظرياتها، وانفتاحها أكثر على علوم الاتصال وعلى الوسائل السمعية والبصرية.

تعني كلمة اتصال / تواصل التعبير والتفاعل من خلال بعض الرموز لتحقيق هدف معين. وتتطوي على عنصر القصد والمشاركة، وتكوين علاقة (المشاركة / التفاهم) حول موضوع / فكرة، لتحقيق هدف / برنامج. ومع هذا تستخدم كلمة اتصال إلى استثمار شبكات الاتصال التكنولوجية، بل حتى ووسائل المواصلات المتقدمة والمتطورة. ويؤكد ذلك أيضا على أن الاتصال يحدث عندما يتبادل الأفراد المعلومات، أي عندما يدرك بعضهم بعضا، وعندكما يتبادلون الرسائل فيما بينهم، ولا يقتصر ذلك على الجانب اللفظي، بل يتضمن الإيحاءات، الإشارات، الرموز. ويعرف الاتصال في إطار الإعلام بأنه بث رسائل واقعية أو خيالية تتصل بموضوعات معينة؛ على أعداد كبيرة من الناس مختلفين فيما بينهم، في النواحي: الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، السياسية، ويوجدون في مناطق متفرقة.⁸

أصبح بالإمكان إعادة إنتاج الرسائل حينما تمكن العلماء من اختراع الآلات، والتي بإمكانها أن تعيد أو تضاعف الرسائل، أو تكون بديلا للمتصل. ومن ثم فإن آلات التسجيل والأقراص وآلات التصوير يمكنها مضاعفة الرسائل الأصلية. إن عملية إعادة الإنتاج تتم باستخدام جملة من العناصر هي: الرموز اللفظية مثل استخدامنا الأبجدية لإعادة اللغة المنطوقة. ورموز الصورة لتصوير الحدث الأصلي باستخدام الأدوات اللازمة لذلك. الصوت ويتم بإعادة إنتاج أو نقل الأصوات الأصلية، أو الموسيقى وغيرها. والحركة وهي إعادة إنتاج الحركة أو نقلها.

ولو أخذنا على سبيل المثال وسيلة اتصال جماهيرية مثل السينما، فسنجد أنها تستخدم العناصر السابقة: كالتوزيع في توزيع الرسالة، والمقدرة على النقل / الحمل، وهي مقدرة وصول الوسيلة أو الرسالة الاتصالية إلى أفراد الجمهور أنى يكونون. المقدرة على المراجعة، وتتمثل في مقدرة الجمهور على مراجعة الرسالة على راحتهم. والفورية، وهي مقدرة الوسيلة على توصيل الرسالة للجمهور فور وصولها. ويمكننا أن نلاحظ كيف أن بعض هذه العناصر أو كلها، يمكن أن تكون أساسية لوسائل الاتصال. وكذلك الحال بالنسبة للراديو الترانزستور أو التلفزيونات الترانزستور، التي لا يزيد حجمها عن كف اليد. وكذلك ندرك أن مع وسائل الاتصال الجماهيري، يمكننا مراجعة الرسالة، إذا كانت مكتوبة ويمكن تسجيلها إذا كانت مسموعة أو مرئية. وأما عنصر الفورية فنحن ندركه من خلال قدرة الإذاعتين المسموعة والمرئية.⁹

تتشترك السينما والتلفزيون بنقل الصور المتحركة والصوت إلى الملتقي. ومن ثم فإنهما يخاطبان حاستي السمع والبصر، ويمكن للمتصل به (المشاهد) أن يسطر على تعرضه للرسالة، كأن يقل جهاز التلفزيون، أو ينسحب من مشاهدة الفيلم. وهاتان الوسيلتان يمكن أن يحتفظ برسائلهما، ويمكن أن يحقق التلفزيون الدور الذي تقوم به السينما في عرض أفلام السينما مع بعض الفوارق. وتمتاز الإذاعة بمخاطبتها لحاسة السمع، وهي وسيلة لا تكلف المتلقي / المستمع كثيراً. إذ أن أجهزة الاستقبال أصبحت رخيصة بعد اختراع الترانزستور، ويكون بعض وسائلها محفوظة ويمكن تكرارها. وتؤدي الإذاعة دوراً أساسياً كوسيلة للترفيه، وخاصة بعد منافسة التلفزيون، إذ تزايدت برامجها الغنائية والموسيقية ورجع رسائلها منخفض. وجمهورها واسع

مختلف المستويات والثقافات، وهو قادر على السيطرة على عمليات التعرض الانتقائي.

إن السينما والصورة هما وسيلتان من وسائل الاتصال الجماهيرية، التي تعتمد على حاسة البصر وتنقل للمتلقي كما هائلا من المعلومات. وتمكن القائم بالاتصال من استغلال ما فيهما من خواص، تجسد الرسالة وتجعلها أكثر تأثيرا وأصح بيان من غيرها. وهما وسيلتان توأمان لهما نفس الخصائص ويصدران عن نفس النظرية، التي تحدد علاقة الضوء بالشيء. والفرق الوحيد بينهما أ السينما صورة متحركة والصورة الفوتوغرافية صورة ثابتة. بل أن العلم أثبت أن السينما هي نفسها صورة ثابتة في الأصل، ولكنها تتحرك أو توحى للإنسان بأنها متحركة. وللتصوير الفوتو غرافي والسينما الفضل في الإيحاء بالتلفزيون، إذ لولا وجود الشيء المصور الثابت أو المتحرك، لما فكر علماء الاتصال وعلماء الوسائل وخبرائها؛ في إرسالها عبر الأسلاك من نقطة إلى أخرى. إن الصورة بحق من أعظم ما اخترعه الإنسان، بل من أفضل وأنبى ما أنجزه الإنسان طوال حياته وتاريخه الحضاري.¹⁰

إن الجانب الهام في صناعة السينما بالنسبة لغالبية دول العالم؛ كوسيلة للاتصال الدولي، هو جانب الفيلم التسجيلي الوثائقي، الذي ينقل رسالة محددة إلى قطاعات معينة ذات تأثير على المجتمع. وفي بعض الأحيان يتاح لهذا النوع من الأفلام العرض من خلال التلفزيون لتتسع رقعة انتشاره، وهذا النوع من الأفلام تنتجه عادة الدول وتتولى توزيعه على البلاد التي تتعامل معها على أسس من التبادل الثقافي، أو من خلال مكاتب الاتصال الموجودة فيها.

إن صناعة الفيلم التسجيلي وذيوعه وانتشاره في أوروبا وأمريكا؛ يؤكد حقيقة أن هذا النوع من صناعة السينما، يحمل رسائل هامة تختلف عن تلك التي تضمنتها الأفلام الروائية. وأن السينما ذات التاريخ العريض، والتي سبقت وسائل الاتصال الإلكترونية، لم تعتمد فقط على الفيلم الروائي كما يظن الكثير من الذين يحبون مشاهدة السينما والاستمتاع بها. بل إن السينما رسالة اتصالية تضاهي تلك التي تقوم بها الوسائل الأخرى؛ مع اختلاف الشكل والصناعة وطريقة الوصول إلى الجمهور المستهلك. أما فعاليتها وتأثيرها على المشاهد، فهي مسألة لا يرقى عليها الشك مطلقاً.

ثم جاءت الشبكة الدولية المحوسبة العملاقة " الإنترنت "، لتمثل قمة التطور في مجال المعلومات والمعارف، واختطفت الأضواء، لتعكس مرحلة خامسة وثورة جديدة في عالم المعرفة الإنسانية. وتعد هذه الشبكة أكبر مزود للمعلومات في الوقت الحاضر، لأنها تضم عددا كبيرا من شبكات المعلومات المحوسبة؛ الموزعة على مستويات محلية وإقليمية وعالمية في مختلف بقاع ومناطق المعمورة. حيث يمكن لأي حاسوب مزود بمعدات مناسبة سهلة الاستخدام بالاتصال مع أي حاسوب في أي مكان من العالم، وتبادل المعلومات المتوفرة معه أو المشاركة فيها، مهما كان حجم معلوماته التي يمتلكها، أو موقعه، أو برمجياته، أو طريقة ارتباطه.

وإن الحديث عن "إنترنت" أصبح الشغل الشاغل لا للعلماء الذين يحتاجون التواصل مع زملائهم العلماء الباحثين داخل وخارج حدودهم الجغرافية والقومية، وتبادل الخبرات والمعلومات والبحثية المختلفة معهم فحسب، بل ولطلبة الجامعات والمدارس والمعاهد، بمختلف مستوياتهم التعليمية الذين أصبحوا اليوم يتهافون على استخدام الشبكة في الدول، التي يستطيعون استخدامها والوصول إلى معلوماتها

المطلوبة. إن عدد وأشكال المصادر الناقلة للمعلومات، وكذلك الموضوعات المتشعبة والمتداخلة التي تعكسها تلك المعلومات، فرضت علينا اللجوء إلى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الحديثة؛ كنتيجة حتمية لتأمين السيطرة على المعلومات، وتهيئتها للباحثين والمستفيدين الآخرين بالسرعة والشمولية والدقة التي يتطلبها منطق العصر، ومن أية بقعة جغرافية في هذا العالم، الذي أصبح يتمثل بقرية كونية صغيرة، ينظر إليها الإنسان من خلال شاشة صغيرة، هي شاشة الحاسوب. ومن هذا المنطلق يمكننا النظر إلى شبكة الإنترنت.¹¹

إن التركيبة التكنولوجية للإنترنت تختلف عن غيرها من تكوينات وسائل الاتصال الإلكترونية الأخرى. فالراديو مثلا وحدة متكاملة تنتج صوتا يتلقاه المستمع في المكان المقصود. والتلفزيون وحدة متكاملة أيضا تنتج صورة وصوتا يتلقاهما الشخص المستهدف في الجهة المعينة للبث. وكل واحد من هذين النظامين له تقسيماته الداخلية. كالأستوديوهات، وأجهزة الإرسال ووحدات التغطية الخارجية. ولكن المهم أن الراديو يطلق على محطة متكاملة وكذلك التلفزيون. أما الإنترنت فهي ليست وحدة متكاملة قائمة بذاتها اسمها "الإنترنت"، وليست وحدة ذاتية تستطيع أن تنتج المعلومات وتوصلها إلى المستفيدين، بل إن الإنترنت عبارة عن توليفة لمجموعة وسائل الاتصال في جمعها وتكوين نظام متكامل منها أسموه "الإنترنت".

فالإنترنت؛ هو عبارة عن شبكة إعلامية من الحاسبات الآلية. وتعرف أيضا باسم شبكة الاتصال العالمية، التي تسمح للكافة بالدخول إلى أعداد متزايدة باضطراد من المواقع الفردية على تلك الشبكة. وهي المواقع التي تقدم عمليا معلومات عن أي شيء وعن كل شيء. يتكون هذا النظام من: الحاسوب، والكوابل المحورية، الميكروويف، والمودم، والأقمار الصناعية. فالإنترنت عبارة عن حاسب آلي يتحدث إلى

حاسب آلي آخر، تربط بينهما واسطة مع التلفون العادي، أو أي نوع آخر من الكوابل. وإذا كانت الحواسيب موجودة في أماكن بعيدة ومتفرقة، فيمكن استخدام الأقمار الصناعية للربط بينها ليتحقق بذلك الاتصال الدولي عبر الإنترنت. ولولا وجود هذه الروابط وقدرتها على استيعاب المعلومات المتدفقة عبرها، لما أمكن اختراع الإنترنت، حتى في داخل القطر الواحد. فإن الشبكة تعتمد على الوصلات الوسطية بين النقطتين.¹²

كان ظهور "السبيرنطيقا" حاسما في تغيير النظر إلى العديد من القضايا، وعلى رأسها التواصل، وأدى ذلك إلى تفاعل العديد من العلوم على منجزاتها، وانطلاقهم من النتائج التي توصلت إليها. لذلك كانت فعلا إبدالا جديدا في التفكير ومدخلا ملائما؛ لكل ما تحقق بعد ظهورها على المستوى العلمي والتكنولوجي، وخاصة على مستوى الإعلاميات وكل ما يتعلق بها من علوم الإعلام والتواصل. لقد قدمت السبيرنطيقا مفهوما جديدا للتواصل؛ باعتباره حقلا للدراسة يسمح باعتبار الآلات أو الأشياء بمثابة فواعل على المستوى نفسه من الأهمية، والذي نجده لدى الكائن البشري. ويرى بعض العلماء أن ما هو هام في التواصل ليس الرسالة، ولكن الشبكات / الوسائط التي تحمل الرسالة، وذلك بناء على أن وضعية المتحاورين تأتي في المرتبة الثانية بالنسبة للتحليل التواصل، وأن الأشكال والنماذج وعقد الشبكات، حيث يتحقق مسارات التواصل بين المتحاورين، هي ما يهتم بها السبيرنطيقا ومن يشغل في إطارها.

النص الإلكتروني مفهوم جديد جاء نتيجة التطور الذي حققته الإعلاميات، ويتم توظيفه للدلالة على النص الذي يتحقق من خلال شاشة الحاسوب. بناء على تطوير وسائل الاتصال الحديثة من جهة، ولخلق أساليب جديدة للتواصل بين أناس، تتعدى ما كان معروفا مثل

الهاتف والفاكس، إلى التواصل المتكامل / مع واسطة جديدة للاتصال والتواصل والإبداع، بشروط ومظاهر مختلفة. ما كان ممكن الحديث عن " النص الإلكتروني "؛ لولا التطور الذي طرأ على مستوى النظر والعمل إلى النص في الحقبة البنيوية حيث برزت سمات جديدة. لقد اتسع مفهوم النص ليشمل الكلمة والصورة (الثابتة والمتحركة)، والصوت سواء اتصلت هذه العلامات أو انفصل بعضها عن بعض. وإذا كان النص الإلكتروني يتحقق بواسطة الحاسوب، فإن هذا النص يعطي إمكانات كبيرة للمتلقي في تعامله وتفاعله معه؛ الشيء الذي يؤكد مبدأ التفاعل.

تطور النص الإلكتروني كثيرا في أمريكا وأوروبا. وظهرت أنواع أدبية وفنون جديدة في اتصال مع الاستخدام الواسع للمنجزات التكنولوجية المتطورة، كما ظهرت تيارات فكرية وثقافية ونقدية، تعني بحصيلة هذا الوسط الجديد، وبالدور الذي اضطلع به في مسار الاتصال والتواصل، وما أدى إليه من تجديد وتطوير على أصعدة عدة. ويؤكد هذه الأطروحة ومؤداها أن خلق أدوات جديدة للاتصال معناه خلق مفاهيم جديدة للتواصل. غير أن هذا الخلق هو نتاج صيرورة / البعد التاريخي للمفهوم من العمل والبحث. وتبعاً لذلك لا يمكن أن نفهم جيداً معنى "النص الإلكتروني"؛ بدون وضعه في سياق الثورة البنيوية وما تلاها من اجتهادات وتطورات على المستوى المعرفي والتكنولوجي. أما على المستوى التكنولوجي فالجهاز الوسيط يبرز الجانب المعرفي في طبيعة النص الإلكتروني ذاته، والتي تبرز في أهم سماته الترابط النصي أو (النص المترابط).¹³

وفي عملية الاتصال يؤدي السياق الذي تتم فيه الرسالة أهمية كبيرة. ذلك أن العملية الاتصالية لا تتم في فراغ؛ فالسياق الثقافي والاجتماعي أو السياسي لا يمكن فصله عن عملية الاتصال. ولهذا فإن

نجاح رسالة إعلامية في مجتمع ما، لا يعني بالضرورة نجاحها في بيئة أو سياق آخر. وذلك لأن السياق له خصوصيته التي ينبع بعضها من الثقافة المتميزة للمجتمع والظروف التي تتم فيها. ووسائل الاتصال الجماهيري؛ هي تلك الوسائل التي نطلق عليها اسم وسائل الإعلام. وهي تشمل الوسائل المرئية المسموعة، وتشمل السينما والتلفزيون / الإذاعة المرئية، والتسجيلات المرئية المسموعة (فيديو كاسيت)، والإنترنت. الوسائل المسموعة، وهي تشمل الإذاعة والتسجيلات (الاسطوانات والأشرطة المسجلة الكاسيت).¹⁴

وتظهر أهمية الرسالة في العملية الإعلامية والتواصل؛ في لأنها وعاء اللغة التي لا يقف دورها عند حدود الوساطة بين أطراف عملية الاتصال في نقل المعلومات، ولكنها تعمل كمثير أو منبه للفرد لتحقيق استجابة معينة. وهذا المنبه لا يتوفر في شكل الرموز اللغوية؛ سواء كانت لفظة أو غير لفظية ولكن في المعنى والدلالة الخاصة بهذه الرموز عند أطراف العملية الإعلامية. ومن هنا كان الاهتمام المبكر لخبراء علماء النفس اللغوي وعلوم اللغة والدلالة؛ في صياغة نماذج عديدة لتفسير عمليات استقبال الرموز اللغوية، وإرسالها في إطار نظريات المعنى والدلالة والعمليات العقلية في اختيار الرموز، وبناء وحدات اللغة بما يتفق مع الدلالة والمعنى.

وما يشير إلى أهمية المدخل اللغوي في الدراسات الإعلامية؛ هو ازدياد أهمية نظريات التفاعلية الرمزية، التي تهتم بطبيعة اللغة والرموز والنظم، التي يبينها الأفراد والمجتمعات للأشياء والأشخاص والمواقف، ودورها في عمليات التفاعل الاجتماعي؛ في إطار نظام واحد للرمز والمعنى. بما يحقق الاستجابات المشتركة وتوقع استجابات الآخرين في إطار الثقافة الواحدة. وكذلك زيادة الاهتمام بالتفاعل الرمزي، والبناء الاجتماعي للمعنى. وما نتج عن ذلك من الإشارة إلى

الدور الذي تقوم به وسائل الإعلام؛ في تشكيل الحقائق الاجتماعية ورسم صورة رمزية للواقع الاجتماعي، يختلف عن الواقع الحقيقي بقصد التأثير في مدركات المتلقين واتجاهاتهم.¹⁵

ولم يقتصر الاهتمام في هذا الجهد على الرموز المكتوبة، ولكنه امتد إلى المنظومة كلها. وظهر في الاهتمام بالصوتيات وعلم النفس السمعي؛ في حالات الاتصال المنطوق وفي إطار خصائص بيئة التخاطب. وذلك بالإضافة إلى نظريات المعرفة الإدراكية، وعلاقتها بالنظام الإدراكي والمعرفي، الذي كونه الفرد عن المحيط به. كما اهتمت النظريات والدراسات المتجددة لعلم النفس اللغوي وعلم اللغة؛ بالإجابة على السؤال الخاص بكيفية الوصول بالرسالة الإعلامية إلى تحقيق أهداف القائم بالاتصال. وكان أيضا الاهتمام بالدلالة والمعنى تطبيقا لهذه الأفكار والنظريات، التي تدرس العلاقة الثنائية بين الرمز والمعنى، الذي يستدعيه في إطار النظريات الخاصة بعلم الدلالة، والعلامات، التي تهتم بهذه العلاقات الثنائية، وبناء التفسيرات الخاصة بالمحتوى اللغوي على أساس هذه العلاقة.

هوامش:

1- محمود عبد الرؤوف: علم الإعلام والاتصال، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة - 1995، ص: 31

2- عز العرب الحكيم بناني: من العلم إلى الفهم في ضوء ظاهرة الإدراك، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي، جدة، السعودية، المجلد العاشر، الجزء 34، ديسمبر -1999، ص: 16

3- خيرى خليل الجملي: الاتصال ووسائله في المجتمع الحديث، المكتب الجامعي الحديث، القاهرة - 2003، ص: 39، 40

- 4- إريك هاوبزباوم: عصر الثورة، ترجمة فائز الصائغ ومصطفى الحمارنة، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - 2007، ص: 418
- 5- رجاء ياقوت: الترجمة ودورها في تفاعل الحضارات، دار الدفاع للصحافة والناشر، القاهرة - 1998، ص: 28 ن 32
- 6- غ. غريفت، هـ. تيفن: الرد بالكتابة، ترجمة شهرة العالم، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - 2006، ص: 47
- 7- جورج موان: اللسانيات والترجمة، ترجمة حسين بن زروق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر - 2000، ص: 28، 29
- 8- سلوى عثمان الصديقي، هناء حافظ بدوي: أبعاد العملية الاتصالية، المكتب الجامعي الحديث، القاهرة - 2003، ص: 13
- 9- صالح خليل أبو أصبع: الاتصال والإعلام في المجتمعات المعاصرة، دار آرام للدراسات والنشر، عمان، الأردن - 1999، ص: 24
- 10- علي محمد شمو: الاتصال الدولي والتكنولوجيا الحديثة، الإنترنت، القمر الصوتي الرقمي، الملتيميديا، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، الإسكندرية، مصر - 2003، ص: 92، 93
- 11- عامر إبراهيم: مصادر المعلومات، من عصر المخطوطات إلى عصر الإنترنت، دار الفكر للطباعة والنشر، الأردن - 2000، ص: 323، 324

- 12- علي محمد شمو: الاتصال الدولي والتكنولوجيا الحديثة، الإنترنت، القمر الصوتي الرقمي، الملتيميديا، ص: 235، 236
- 13- سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي، المركز الثقافي، الدار البيضاء، بيروت - 2005، ص: 122، 123
- 14- فرنان ترو: الإعلام، ترجمة محمود الغندور، المنشورات العربية، بيروت - ص: 25، 40
- 15- محمد عبد الحميد: البحث العلمي في الدراسات الإعلامية، عالم الكتب، القاهرة - 2003، ص: